16

الروابط المتداخلة: عالمٌ متوسطي

سعت أوروبا والشرق الأوسط، ناهيك عن أفريقيا وآسيا الغربية، إلى إلصاق نفسها بما يُسمى عالم متوسطي ممتد، وهو العالم الذي يمتد بدوره حتى الخليج. وقد حث أحد وزراء الخارجية الجزائريين في أواخر سبعينيات القرن العشرين العالم على أن ينظر إلى الجزائريين باعتبارهم شعبًا متوسطيًا في سياق عربي، بدلاً من النظر إليهم باعتبارهم شعبًا عربيًا. وعلى نحوٍ بديل، من الممكن أنه قد كان مستعدًا للقول أن الجزائريين كانوا شعبًا عربيًا، ولكن في سياق متوسطي. وربما كان الغالب هو وجود اختلاف بشأن ما ينبغي التأكيد عليه، ولكن على أية حال، كانت ثمة حقيقة كامنة خلف كل هذا؛ وهي وجود ازدواجية، سواءً تم التعبير عنها صراحةً أم لا. وكانت تلك الازدواجية موجودة أيضًا- ولكن بعناصر مختلفة، في مدن تونس، وطرابلس، والإسكندرية، وبيروت. كما لم يكن شعب شمال المتوسط الذي يعيش في نيقوسيا أو إزمير، أثينا أو فاليتا دون إزدواجية، بل زاد تعقيد الإزدواجية هناك في حالة الجزر استمرار عضويتها في الكومونويلث، والحضور الأساسي المستمر للغة الإنجليزي وللإنجليز، سواءً ممن يعيشون كمقيمين أو من يزورون المكان كسائحين. وكان المثال على ذلك جزيرة مالطا. عاد دوم منتوف الذي تلقى تعليمه في جامعة أكسفورد- والذي كانت له جهود متحمسة لم تتكلل بالنجاح عن اندماج الجزيرة

مع المملكة المتحدة- إلى منصبه كرئيس للوزراء عام 1971. وكانت مالطا قبل ذلك مستقلة منذ عام 1964 مع بقاء ملكة بريطانيا على رأس الدولة فيها. تحوَّل اتجاه منتوف عند هذه النقطة إلى اتجاه آخر. أصبحت الجزيرة جمهورية (على الرغم من بقاءها داخل الكومونويلث) وفي سعيه إلى استخلاص ما وسعه استخلاصه من الناتو ليستخدمه في المنشآت البحرية للجزيرة، كانت له تطلعات متزايدة عبر البحر المتوسط. وقدَّم نفسه في صورة شديدة الاختلاف أثناء مؤتمر دول عدم الانحياز الذي انعقد في الجزائر العاصمة. وبالضرورة، جعل موقع مالطا الجغرافيا منها في حالة "الما بين"، ولكن الدهاء السياسي بدا في ذلك الحين وكأنها تحاول تحويل الجغرافيا إلى سياسة. وكان للشرق الأوسط/ شمال أفريقيا/ أوروبا الجنوبية/ آسيا الصغرى بالفعل روابطها الخارجية الخاصة المميزة في أماكن أخرى، بيد أن أحداثًا أخرى أشارت- على الرغم من تميزها- إلى أنها ستكون منطقة مفككة، على الرغم من أنها ستكون لها تناقضاتها العميقة. و تلك المناطق مغبشة باعتبارها عوالم مختلفة، متداخلة ومتقاطعة.

العوالم العربية

لم يكن جوهر العالم العربي ومحيطه بيِّنة (وكانت بالطبع جزئيًا فقط "متوسطية"). وكان مدى اشتراك سكان مناطق مثل الخرطوم والكويت وتونس والجزائر العاصمة وعدن وبغداد وطرابلس والرباط ودمشق والرباط في المنظور أمرًا محل شك. فقد كان لكل منطقة، وكذلك كل بلد فرديتها الخاصة. ونظر العالم الخارجي إلى العالم العربي باعتباره عالمًا يحيطه غموض عصيٌّ على المعالجة تعايشت فيه دعائم التضامن مع التنافس الحاد والصراع الداخلي. وعلى الرغم من ذلك، ربما لم يكن شديد الاختلاف في تنوعه عن أوروبا التي أتى ذكرها في الفصل السابق. بيد أن أوروبا الغربية لم يكن لها لغة مشتركة مثل العربية (على اختلاف لهجاتها) التي تمتع بها العالم العربي. وفي ظل سياق اجتماعي كان يُفترض بقدرٍ كبير أنهم يتعلمن، كانت الخصومة الكاثوليكية/ البروتاستنتية الأوروبية قد ضعفت بقدر كبير، بيد أن الخصومة السنية الشيعية في الشرق الأوسط بدت في تصاعد. ولم يكن العالم العربي- بعيدًا تمامًا عن وجود أقلياته المسيحية المستمرة- بالطبع مرادفًا للـ

عالم الإسلامي. وبطبيعة الحال كانت الدولتان اللتان احتوتا أكبر عددٍ من مسلمي العالم- أي إندونيسيا وباكستان- غير عربيتين. ومع ذلك، وبسبب أهميه مكة وغيرها من المواقع في شبه الجزيرة العربية وبسبب السلطة المركزية للنص العربي القرآني حدد العالم العربي إلى حدٍ ما الإسلام.

ومع ذلك، عند هذه النقطة انتهت السيطرة الأوروبية المباشرة. فقد غادرت القوات الإنجليزية عدن في ديسمبر 1967. لم يكن هذا ما سيحدث لاحقًا بشأن الهيكل الفيدرالي في جنوب غرب الجزيرة العربية. وقد كان إنهاء الإنجليز لدورهم الحامي للخليج مباشرًا- مع استقلال البحرين وقطر وتشكيل الإمارات العربية المتحدة (أبوظبي، الشارقة، وعجمان، وأم القوامين، والفجيرا)، جميعًا عام 1971- بيد أنه كان لا يزال من غير المؤكد ما إذا كان هذا العالم الخليجي سيصمد أمام الظروف. وعلى ذلك، من الناحية النظرية، كان الشرق الأوسط العربي بعد طول انتظار، قد وصل إلى تسوية باستثناء أن بديهيات الأمور كانت لا تزال محل إشكال. فلم يكن سوى دولة واحدة فقط هي ما أطلقت على نفسها اسم الجمهورية العربية المتحدة، وهي مصر حتى عام 1971. وكان هذا اللقب هو التركة المتبقية للمحاولة الفاشلة لخلق وحدة مصرية/ سورية فعَّالة. بل ذهبت إمكانية إنشاء دولة عربية واحدة تمتد إلى نهري دجلة والفرات إلى مذهب أبعد من ذلك. وفي عام 1962، أرسل جمال عبدالناصر قوات مصرية للمحاربة في اليمن لدعم النظام الجمهوري الجديد. وكان هذا الأمر مصدر استنزاف مالي لمصر؛ فقد مكثت القوات هناك لخمسة أعوام دون أن تحرز نجاحًا عسكريًا واضحًا في أرض وعِرة تعج بالعداوات القبلية والطائفية. وقد دعمت السعودية الجانب الملكي بالمال والسلاح (فقد كانت هناك شكوك ترقى إلى مرحلة اليقين لدى الرياض بأن ناصر يسعى إلى بسط النفوذ المصري على جميع أنحاء الجزيرة العربية). وذهبت كل الجهود المبذولة للوصول إلى تسوية بالتفاوض أدراج الرياح. وعلى مستوى آخر، لم يكن في دمشق ولا في بغداد أي ذرة حماس لقبول قيادة ناصر. وأقل ما يمكن أن يُقال في هذا الصدد، أن الوحدة العربية كانت محيِّرة.

وكان الأمل ضئيلاً في أن يشهد "العالم العربي" انعقاد أي مؤتمر يمكن مقارنته

بالروح الجماعية الشمالية التي أسفرت عنها اتفاقيات هلسنكي. وكثيرًا ما كشف الصحفيون أنه كان نقطة ساخنة دائمة. وأصبح مرادفًا في أذهانهم للـ "نفط" ليس لأنه كان موردًا منتشرًا بجميع الأحوال بصورة متساوية في جميع دول الشرق الأوسط، وهو الأمر الذي كان في حد ذاته مصدرًا دائمًا للتوتر. وكانت السعودية قد أصبحت أكبر مستغل للنفط في العالم و، في هذه الفترة، امتلكت ما يقرب من ربع احتياطات النفط الثابت للعالم. وبدل إكتشاف وجود النفط في الخليج وأماكن أخرى أساس الاقتصاديات بصورة جذرية وسريعة، كما بدلت في ذات الوقت العلاقات المحلية وتوازنات القوى الراسخة. وقد أمدت الموارد الغزيرة للشرق الأوسط، التي عززتها الاكتشافات الجديدة، أوروبا الغربية واليابان وعلى نحو متزايد، الولايات المتحدة الأمريكية. وتطلع المشترون الخارجيون إلى ضمان الإمداد. ولم يكن مثار دهشة أن شروط الملكية والإنتاج قفزت إلى المقدمة. علاوةً إلى ذلك، لم تغب احتمالية استخدام النفط كسلاح سياسي عن الأذهان. وفي تلك الظروف، لم يكن ثمة جزء آخر من العالم بهذا القدر من عدم الاستقرار المزمن والعرضة إلى النزاع، نزاع جذب، كما حدث من قبل أطراف خارجية. وتشابكت القضايا الداخلية والضغوط الخارجية بشكلٍ لا يتغير.

فلسطين: الحرب وتبعاتها، 1967

لم يكن من الممكن العثور على الوحدة في العالم العربي إلا في إتباع إستراتيجية مشتركة ضد الآخر الذي كان إسرائيل. في يناير عام 1964، بعد اجتماعه في القاهرة، كرر مجلس الجامعة العربية دعمه للشعب الفلسطيني في تحرير وطنه وتقرير مصيره. كان من السهل التعبير عن مثل هذه العواطف أما الأفعال فكانت أكثر صعوبة. ومع ذلك، كان من حصيلة ذلك منظمة التحرير الفلسطينية، التي تأسست في الأردن في مايو 1964 للتنسيق بين الفصائل الفلسطينية المختلفة. كما تم إقرار علم يحتوي على شعار لفلسطين. وبرز نجم ياسر عرفات (وهو الاسم الذي كان مشهورًا به) كرمز بارز، وإن كانت الساحة لم تخلو من المنافسين له دائمًا. ولم يكن لعرفات محل إقامة دائم؛ فقد كانت معظم تربيته في القاهرة، وكان والده من غزة وأمه من القدس. وكان قد حارب في غزة عام 1948 عاد بعدها إلى

القاهرة ليكمل دراسته للهندسة المدنية في جامعة الملك فؤاد. وبعد ذلك تجول في العالم، فقضى بعد الوقت في الكويت وأماكن أخرى. وشنت حركة فتح، التي شكَّلها عام 1959، أولى هجماتها في إسرائيل في يناير 1965. وكانت تلك الهجمة تتخذ نمط بداية حرب للتحرير. وأضافت النزاعات التي نشبت بشأن السيطرة على مياه نهر الأردن مزيدًا من التوتر الإقليمي الذي كان يشوب هذه الفترة. وشنت إسرائيل هجمات مضادة، تحديدًا ضد الأردن. وتدهورت العلاقات بين سوريا التي وصل فيها نظام جديد إلى الحكم وإسرائيل. واندلعت معركة جوية بين البلدين في إبريل عام 1967. وفي الشهر التالي، أعلمت سوريا ناصر بتمركز قوات إسرائيلية كبيرة أمام مرتفعات الجولان (التي انطلق منها قصف سوري إلى الداخل الإسرائيلي). وُضع ناصر في مأزق. فقد كان بالفعل محل نقد- مقارنة بسوريا- لأنه لم يفعل شيئًا. وفي منتصف مايو من عام 1967، زاد ناصر من حدة خطابه، بعد أن تلقى تطمينات بأن الجيش المصري جاهزٌ للقتال، إذا لزم الأمر. ومنذ حرب 1956، كانت قوات طوارئ تابعة للأمم المتحدة حاضرة، بعد الحصول على الموافقة المصرية، في شبه جزيرة سيناء. وفي ذلك الحين، امتثل الأمين العام للأمم المتحدة للطلب المصري بسحب تلك القوات. وبعد ذلك أمر ناصر بحصار مضيق تيران، عند مصب خليج العقبة، والذي كان ميناء إيلات الإسرائيلي يقع على رأسه. وبحلول نهاية الشهر، وضع الملك حسين ملك الأردن قواته تحت التصرف المصري.

تردد ليف إيشكول، رئيس الوزراء الإسرائيلي. وحيث إنه كان في أوائل السبعينيات من عمره، فإنه كان قد جاب العالم منذ وقت طويل، ووصل إلى فلسطين وهي تحت الحكم العثماني عام 1914 قادمًا من أوكرانيا، حيث ولد. وانتهى به مطاف الحيرة بقبول المشورة العسكرية التي أفادت أن قبول الحرب تدق وأن إسرائيل عليها أن تبادر بالضرب. بدأت "حرب الأيام الستة" في 5 يونيو. وانتهت بهزيمة ساحقة للقوات المصرية والأردنية والسورية بعد سلسلة من الضربات المميتة. احتلت إسرائيل مرتفعات الجولان، والضفة الغربية (بما في ذلك القدس الشرقية) وصحراء سيناء. وفي 9 يونيو، وبعد قبوله المسؤولية عن الفشل، أعلن ناصر قراره بالتنحي. بيد أن المطلب الشعبي، الذي ظهر في صورة

مظاهرات جيدة التنظيم، أقنعه بتغيير رأيه. في حين أُرغمت شخصيات أخرى داخل نظامه على دفع ثمن هذا الفشل. وتم سحب القوات المصرية من اليمن. تدهورت مكانة ناصر، ولم يتمكن أبدًا من استعادة وضعه السابق، بعد أن تدهورت صحته.

وعلى المدى القصير بدت السيادة العسكرية الإسرائيلية مضمونة. بينما أثار ما ينبغي فعله في الأراضي المحتلة وبها أسئلة أعمق. كان ثمة نزاع داخلي بسيط في إسرائيل حول إرفاقها القدس الشرقية رسميًا إلى أراضيها- والذي حدث على الفور، على الرغم من الاستهجان الدولي واسع الانتشار. وقد جلب الاحتلال المستمر لسيناء ومرتفعات الجولان مزايا عسكرية، ولكنها مزايا كان يمكن المساومة عليها ولو بثمن باهظ مستقبلاً. أما الضفة الغربية فكانت أمرًا آخر. فبالنسبة لبعض الإسرائيليين، كانت الضفة يهودا والسامرة، وينبغي أن تكون على نحو ملائم جزءًا من إسرائيل الكبرى. بيد أن تواصل الاحتلال جلب مزيدًا من السكان العرب إذ كانت إسرائيل/ الأرض المحتلة تعتبر وحدة واحدة. وربما كان ثلث هؤلاء السكان يتألف من لاجئين فقراء من حرب عام 1948. ولم يكن أثر عدد العرب هذا ليتم تخفيفه إلا عن طريق تشجيع المزيد من اليهود بالقدوم إلى إسرائيل وبإنشاء مستوطنات يهودية في تلك الأراضي. فيما عدا ذلك، فإن ديموغرافية المكان كان يمكن أن تشكل، على مدى يمكن ألا يكون طويلاً جدًا، خطرًا على الأساس اليهودي للدولة. علاوةً على ذلك، أيًا ما كان الماضي السحيق الذي يُستشهد به لتسويغ الاحتلال، فإن الاحتلال نشأ بصورة مباشرة من الغزو الحديث. وأشار هذا مرةً أخرى إلى تصنع الاغتراب الذي تتسم به إسرائيل. رفض وزير الخارجية الإسرائيلي آبا إيبان، وهو الرجل المعاصر من حيث العمر لعرفات، والمولود في جنوب أفريقيا والذي تربى على الموائد الإنجليزية، وتعلم في كامبريدج، وكان لغويًا ألمعيًا (وكان من بين ما يتقنه الترجمة من العربية)، هذا التوجه. وحاجج في الأمم المتحدة وفي غير مكان أن حق إسرائيل لا يقتصر فقط على الحق في الوجود، بل أيضًا على أنها جزءٌ أصيل وليس غريب من الشرق الأوسط.

ولم تتدخل أيًا من الولايات المتحدة الأمريكية ولا الاتحاد السوفيتي مباشرةً في

الحرب، على الرغم من أن الثانية، لوهلة من الزمن، بدت وكأنها تفكر في ذلك. وقد نأى الأسطول المتوسطي لكلتا الدولتين بنفسه عن الصراع. ولا يعني هذا أن القوى العظمى نأت بنفسها ببساطة. لقد كانت المخابرات السوفيتية هي ما وجه ناصر بشأن تمركز القوات" الإسرائيلية المفترض قبيل مرتفعات الجولان. وقد وردت الأسلحة المصرية من الاتحاد السوفيتي (أوقفت الولايات المتحدة المساعدات إلى مصر في عام 1965). بينما كانت الولايات المتحدة وبريطانيا، وحتى مرحلة متأخرة، فرنسا، تمد إسرائيل بالسلاح. ولم يكن أيٌّ من الخصمين ليقدر على الحرب دون هذا العتاد الأجنبي. ولم تكن الولايات المتحدة الأمريكية لتقر تدمير إسرائيل، ولكنها أيضًا لم تكن توافق على توسعها. كانت الروابط وثيقة. وكان ليفي أشكول أول رئيس وزراء إسرائيلي يزور الولايات المتحدة الأمريكية رسميًا عندما ذهب إلى واشنطن في 1964. وقد لاق النجاح الإسرائيلي بدرجة كبيرة استحسان الرأي العام الغربي، في الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا الغربية، وهو أمر تم الحكم عليه بواسطة استطلاعات الرأي. وقد حث أصدقاء إسرائيل، البارزين لدى العامة وفي الحياة التجارية، أتباعهم من المواطنين غير اليهود على النظر إلى إسرائيل باعتبارها دولة ديمقراطية تحمل قيم الغرب. ومع ذلك، أبرز هذا التعريف غرابة إسرائيل بدلاً من شخصيتها الشرق أوسطية. ولقي تصويرها باعتبارها "داود" الذي يخوض معركة مع "جالوت" استحسانًا كبيرًا، ولكن العالم العربي وجد وسيواصل الوجود. وكانت روابط الولايات المتحدة والسعودية وثيقة. وحافظ ملك الأردن حسين على أواصر قوية مع بريطانيا، وهي الدولة التي تلقى فيها تعليمه. ولم تنظر الحكومات الغربية إلى نتيجة الحرب على الأرض باعتبارها نهائية.

وفي الخرطوم، التي كانت بعيدة كل البعد عن الصراع المباشر، اجتمع رؤساء الدول في أغسطس-سبتمبر 1967 للتأكيد على وحدة القوات العربية. وحينها تقرر أن لا سلام مع إسرائيل، ولا اعتراف بإسرائيل، ولا مفاوضات مع إسرائيل. وقد أصر الرؤساء على حقوق الشعب الفلسطيني في بلده الأصلية. وأقر الرؤساء أن النفط يمكن أن يكون سلاحًا في المعركة. ووافق الرؤساء على تقوية التحضيرات العسكرية لمواجهة كافة

الأحداث. وكان من الممكن أن يكون من مدعاة الدهشة ألا يكون أي بيان آخر في الأفق.

وعلى الرغم من هذا اللدد في الخصومة من المنتصر والمهزوم، كان من الممكن الوصول إلى نقطة تحول أخرى أو لحظة اختيار أخرى كما عبر عنها الرئيس جونسون. لم يكن ديجول الزعيم الوحيد الذي يربط الشرق الأوسط وفيتنام كمصادر محتملة لصراع عالمي جديد. وبدلاً من ترك الأمور تتأزم إلى أجل غير مسمى، كان على العالم الخارجي أن يرعى التوصل إلى حل. صاغ الإنجليز مسودة قرار (رقم 242) والذي مرره مجلس الأمن في نوفمبر 1967. وتحدث القرار عن انسحاب قوات مسلحة إسرائيلية من أراض (دون استخدام أي أداة تعريف) كانت قد احتلتها حديثًا. ودعا القرار إلى إنهاء جميع حالات الحرب. كما أوصى القرار بأن سيادة كل دولة وسلامة أراضيها واستقلالها السياسي ينبغي أن يتم الحفاظ عليها وينبغي أن يتم الإقرار بها واحترامها. وتم تعيين ممثل خاص للأمم المتحدة (الذي تبدى أنه دبلوماسي سويدي اسمه جونار يارنج) للضغط في سبيل تنفيذ تلك المبادئ (والمسائل الأخرى المنبثقة عنها). وحتى مع ذلك، وعلى الرغم من أن القرار 242 وصل إلى حالة نص مقدس، يستشهد به في انتظام في المستقبل، لم تنشأ أي تبعات مباشرة من ذلك. وفي بعض الأحيان عبر السفير جونار في بعض الأحيان عن تفاؤل متحفظ، ولكن المطاف انتهى به إلى الإحباط.

وفي ديسمبر من عام 1969، أصدر وزير الخارجية الأمريكية روجرز بيانًا شاملاً يحدد القضايا الأساسية المتعلقة بالسلام، والأمن، والانسحاب، والأراضي الذي يمكن الاتفاق بشأنها، على أن يستتبع ذلك حلاً لمسألة اللاجئين ووضع القدس الشرقية. وقال في بيان يوضح ، أن السلام يعتمد على السلوكيات والنوايا لكلا الطرفين. ومع هذه الحالة، لم يتغير إلا القليل. ومن آن لآخر، بدت القوى العظمى وكأنها غير بعيدة تمامًا عن السعي إلى التوصل إلى حل. ومع ذلك، لم يكن أي منها جاهزًا لسحب الدعم الذي مُنح إلى العملاء التابعين لها. وتدفق المستشارون والمعدات من روسيا (بما في ذلك الصواريخ) إلى داخل مصر لدعم ناصر الذي كان في حالة من الوهن والتهاوي حينها. سعى الزعيم المصري إلى الحصول على دعم مالي من السعودية والكويت تحديدًا. وكانت إسرائيل قادرة

على تلقي دعم أمريكي مستمر. وكان من الممكن تفسير مثل هذا التعزيز، من جانب كل قوة من القوى العظمى، باعتبارها جعلاً لجولة أخرى من القتال أكثر احتمالية، بيد أن أيًا من القوى العظمى لم يكن يرغب في هذا.

أعلن ياسر عرفات أن الوقت قد حان بأن يأخذ الفلسطينيون زمام أمورهم في أيديهم. ولم يكن بوسعهم، في ضوء النقاط المذكورة أعلاه، أن يعتبروه مجرد تسوية ستفرض عليهم من الخارج. كما لم يكن بوسعهم أيضًا أن يعتمدوا على أن تقدِّم الدول العربية قضية فلسطين على أي من شواغلها الشخصية. ودعت منظمة التحرير الفلسطينية التي كان عرفات يترأسها حينها، إلى اجتماع في يوليو 1968 لصياغة نسخة مراجعة من ميثاق وطني. وأكدت المنظمة على أن النضال المسلح هو الطريق الوحيد لتحرير فلسطين. ودعت الأمة العربية إلى مساعدة الشعب الفلسطيني. وتم تعريف الفلسطينيين باعتبارهم مواطنين عرب كانوا يعيشون في فلسطين حتى 1947، وكذلك كل من كان له أبٌ عربي كان يعتبر فلسطينيًا. وكان من المزمع اعتبار العدد القليل من اليهود ممن عاشوا في فلسطين بصورة طبيعية قبل الغزو الصهيوني فلسطينيين. وذكرت المنظمة أن اليهودي هو من يتبع دين، وليس شخصًا يحمل جنسية. ولم يغير تقادم الزمن الحقيقة التي تفيد بأن إسرائيل تأسست بصورة غير قانونية. فقد خرقت إسرائيل مبادئ ميثاق الأمم المتحدة.

وكانت إستراتيجية عرفات المزدوجة، طالما اعتبرنا أن منظمته شديدة التداعي تمتلك إستراتيجية من الأساس، تتمثل في السعي إلى الحصول على درجة من الاعتراف الدولي بأنها شبه حكومة تمثل "الشعب الفلسطيني" وأيضًا في البدء في عمليات إرهابية، مثل اختطاف رحلات الطيران المدنية. وفي نهاية المطاف، حقق الشطر الأول من الخطة شيئًا من النجاح، حيث اعترف رؤساء الدول العربية في اجتماعهم في الرباط في أكتوبر عام 1974، بمنظمة التحرير الفلسطينية باعتبارها الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني (وهو ما يعد تحذيرًا إلى الملك حسين بألا يفكر في عقد صفقة منفردة مع الإسرائيليين). وقد تمت بلورة هذا النجاح، بصورة ربما أكثر بروزًا، في الشهر التالي، عندما تمت دعوة عرفات لتوجيه خطاب إلى الجمعية العامة للأمم المتحدة نيابةً عن منظمة التحرير الفلسطينية.

هاجمت إسرائيل هذه الدعوة، وكررت القول بأن "الأردن هي فلسطين". ومررت الجمعية العامة قرارًا أعاد التأكيد على الحقوق التي لا يمكن التفريط فيها للشعب الفلسطيني في فلسطين. وقد تسبب الجزء الآخر من الإستراتيجية في الهجوم على مقر الفريق الإسرائيلي في أولومبياد ميونخ لعام 1972- وهو هجوم حظي بالترحيب في ألمانيا من جانب جماعة أندرياس بدر وأولريكي ماينهوف. وبات هذا الهجوم أشهر مثال على الإرهاب المناهض للصهيونية.

وكان الحفاظ على هوية فلسطينية (أو خلقها) مع وجود عدد كبير من الفلسطينيين كلاجئين يعيشون في دول الجوار بلا شك أمرًا صعبًا. فلم يكن ثمة "وطن" تُبسط عليه السيطرة الفلسطينية. وكان وجودهم كمبعدين – بأعداد تقارب ثلاثة ملايين ربما- في الأردن، والضفة الغربية، وغزة، ولبنان، وسوريا و-بأعداد أقل- في مصر، والعراق ودول الخليج- أيضًا اختبارًا لقيم التضامن. وكان هذا هو الحال ، في هذه المرحلة، في الأردن. فقد سلبت الحرب مؤقتًا الأردن الضفة الغربية، بابها الخلفي لفلسطين. ولطالما كان إحداث توازن المملكة أمرًا صعبًا من قبل، ولكن الآن هرب مائتي ألف فلسطيني آخر من القتال ليدخلوا الضفة الشرقية للأردن. وتصاعد التوتر بين الوافدين والملك حسين (والبدو التقليديين الذين اعتمد عليهم للاحتفاظ بسلطته). وفي سبتمبر من عام 1970، ونظرًا لعدم رغبة الملك في قبول قيام دولة داخل الدولة وكذلك عدم رغبته في أن يقبل بصورة كاملة التخلي عن دعواه بأنه يمثل فلسطين، أعلن الأحكام العرفية. وأرسل الملك جيشه لمحاربة معسكرات منظمة التحرير الفلسطينية. ووقعت إصابات بالغة، وبدا الأمر في مرحلة ما أن الأردن سيستعين بمساعدة سوريا لمحاربة منظمة التحرير الفلسطينية. وفي مؤتمر القاهرة، حاول ناصر التوصل إلى صفقة بين الملك حسين وعرفات؛ وهو ما أدى إلى إصابته بالأزمة القلبية التي أدت إلى وفاته. وفي العام التالي، غادرت قوات المنظمة وعرفات الأردن متوجهين إلى لبنان. وصدق على هذه الفترة ما أطلق عليها بأنها كانت أيلول الأسود. وأشار اسم العصابة –أيلول الأسود- المسؤولة عن هجوم ميونخ إلى أن الأردن أو أي حكومة أخرى معادية للقضية الفلسطينية أو لا تعبأ لها، يمكن مهاجمتها

أيضًا وببساطة صورت إسرائيل منظمة التحرير الفلسطينية بأنها "مجموعة من القتلة".

فلسطين: الحرب وتبعاتها، 1973

في يونيو 1975، أعاد أنور السادات- الذي تولى منصب الرئاسة بعد وفاة ناصر- رسميًا افتتاح قناة السويس التي كان سلفه قد أغلقها أمام حركة السفن لمدة ثمانية أعوام. ولم تعد أهمية القناة التي تعد بمثابة الشريان التجاري للعالم، في ظل استخدام الصهاريج الضخمة والكميات المتزايدة من الشحن البحري، كما كانت عليه سلفًا. ومع ذلك، ظلت رمزيتها باعتبارها القناة التي وصلت الغرب والشرق بقوة، كما كان السادات مدركًا جيدًا. ومع ذلك، كانت إعادة الافتتاح تلك مجرد خاتمة لسلسلة غير عادية من الأحداث. فقبل ذلك، وفي يونيو من عام 1971، كان السادات قد أعلن أن عام القرار قد جاء. وبطريقة أو بأخرى، كان ينبغي وضع نهاية لحرب فلسطين. وفي بادئ الأمر، ومع الأخذ في الاعتبار إعتماد جيشه على إمدادات السوفيت، لم يكن أمامه إلا توقيع اتفاقية صداقة مدتها خمسة عشر عامًا مع مورده، في الشهر السابق على ذلك. وفي أكتوبر، أثناء زيارته إلى موسكو، أخبر مضيفيه السوفيت أن القوة وحدها هي ما سينهي العدوان الإسرائيلي. أما الكرملين، سعيًا منه لإنهاء التوتر مع واشنطن في هذه المرحلة، فكان شديد الحذر. وفي يوليو عام 1972، بدَّل السادات مساره على حين غرة. فطلب من المستشارين العسكريين الروس مغادرة البلاد- مما حدى بهم بأخذ معداتهم العسكرية معهم. كان الأمل حينها أن تقدم الولايات المتحدة الأمريكية في مقابل ذلك على إلزام إسرائيل بالانسحاب. أما الإسرائيليون من جانبهم فظنوا أن مصر لم يعد أمامه خيارٌ سوى إقرار الوضع الراهن. وفي المقابل، لم تقدم أي تنازلات. حينها لجأ السادات إلى العالم العربي، وقدَّمت مصر وسوريا (وحتى على نطاق أضيق الأردن والعراق) قوات كبيرة، أما السعودية وغيرها من الدول المنتجِة للنفط فقد استخدمت سلاح النفط (على الرغم أنه كان من غير المحتمل أن تظهر فاعليته بسرعة). وعندها، وفي 6 أكتوبر 1973، بدأ هجوم عربي من جهتين، إحداهما من السوريين على جبهة الجولان في الشمال، والأخرى من المصريين بعبورهم قناة السويس- وأحرز الهجوم تقدمًا جيدًا في بادئ الأمر. وزعم إيدي أمين(حاكم أوغندا) أنه

كان يعمل شخصيًا خلف الخطوط الإسرائيليه وأنه أسهم في نجاح القوات المصرية.

طلبت رئيسة الوزراء الإسرائيلي جولدا مائير- المولودة في كييف عام 1898- الدعم من الولايات المتحدة الأمريكية، التي كانت قد عاشت بها لمدة أربعة عشر عامًا قبل أن تهاجر إلى فلسطين عام 1921. كان الأمريكيون يخشون أن وجود إسرائيل نفسه بات على المحك. وربما أوحت اللغة التي استعملتها جولدا مائير أن بلادها – في ظل الظروف التي وجدت نفسها فيها- ربما اضطرت إلى استخدام قنبلة نووية. على الفور زودها جسر جوي بما طلبت من أسلحة إضافية. تبدلت دفة المعركة. وبعد العديد من البدايات الخاطئة، تم التوصل إلى وقف لإطلاق النار في 26 أكتوبر. انتهت رابع حرب تدور رحاها بين العرب وإسرائيل بالتعادل بصورة أو بأخرى بين القوتين. فقد كانت خسائر الطرفين مرتفعة. وأصبح دور القوى العظمى بمرور الزمن حرجًا. فقد أصبحت تلك القوى أكثر انخراطًا مما كان يُفترض لها في بادئ الأمر أو ربما أكثر مما أرادت هي. وقد مثلت احتمالية تدخل السوفيت عسكريًا لصالح العرب إنذارًا بالحرب بالنسبة للأمريكية (بما في ذلك إنذارًا نوويًا). وقد استغرق الأمر اتصالات مباشرة مكثفة بين موسكو وواشنطن قبل أن تتمكن كلتا البلدين من الاتفاق على شروط يصدر بها قرار من مجلس الأمن.

وقد حملت النتيجة متناقضات. لطالما كان من المفترض أن تكون الوساطة الخارجية أحد مصادر الأذى في المنطقة. بيد أنه في هذه المرة، إذا سعت كلتا القوتين العظمتين (أمريكا وروسيا) جادة في السعي لإيجاد حل، فإن التوصل إلى هذا الحل كان ممكنًا. لم يكن من الواضح ما إذا كان بوسعهما القيام بهذا بالتناغم. كما أن أزمة النفط التي شهدتها تلك الفترة، والتي سيأتي ذكرها لاحقًا، والموقف المعزز للدول العربية المنتجة للنفط، كانا عاملاً آخر في البحث عن تسوية. وفي ديسمبر عام 1973، افتتحت إسرائيل ومصر والأردن والولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي – ولكن دون سوريا- محادثات في جنيف. واضطلع كيسنجر حينها بدور دبلوماسي شديد الفاعلية، ولكن لم يرَ حاجة كبيرة إلى المساعدة السوفيتية. وكان بوسعها أن تتوسط في صفقة مباشرة بين إسرائيل ومصر. وعند هذه النقطة – كما في غيرها- أضافت الأزمة الرئاسية في واشنطن تعقيدات التوصل

إلى تسوية. كما أضافت إلى الأزمة أيضًا وجود حكومة جديدة في إسرائيل برئاسة إسحاق رابين بدءًا من عام 1974- وهو أول رئيس وزراء إسرائيلي تكون فلسطين محل ميلاده (القدس). وشهدت حكومته صراعًا بين الحمائم والصقور. وفي سبتمبر من عام 1975، وبعد مفاوضات مطوَّلة، كان وزير الخارجية الأمريكي، بفضل ما عرضه من زيادة المساعدات الأمريكية للطرفين، هو من أنجح التوصل إلى اتفاق بين مصر وإسرائيل (على الرغم من أنه قد أُبرم رسميًا في جنيف). سحبت إسرائيل مزيدًا من قواتها من القناة، بما خلق منطقة عازلة، وسلمت الممران جيدي ومتلة اللذان لهما أهمية إستراتيجية. ومع ذلك، إحتفظت إسرائيل بمعظم سيناء. وافق المصريون على مرور الشحنات غير العسكرية الإسرائيلية عبر قناة السويس. ونصت المادة الأولى من الاتفاقية على أن الصراع بين البلدين ينبغي أن يُحل سلميًا. ولم تكن هذه لغة منظمة التحرير الفلسطينية. وربما كان هذا يعني أن الشرق الأوسط على مشارف تغير جوهري. فما فعلته مصر كان أمرًا مهمًا.

كانت هناك أحداث أخرى وتغيرات في الانحيازات في ذلك الوقت جعلت شكل العالم الممتد حول كافة أرجاء المتوسط والمناطق الواقعة خلف سواحله، إشكاليًا بدرجة كبيرة. لم توازي إتفاقية سيناء أي قرار يتعلق بقضايا أخرى شائكة مثل سوريا والأردن. وقد أكدت هذه الحقيقة في حد ذاتها الموقف الغامض الذي تبوأته مصر في العالم العربي. كان على السادات أن يتطلع شمالاً وجنوبًا وغربًا، على الرغم من أن هذا لم يكن شغله الشاغل. وهناك، في السودان كانت حكومة مدنية ائتلافية تحكم البلاد حتى عام 1969 ولكنها عانت لتحكم دولة تتقاطع فيها الانقسامات العرقية والدينية مع الجغرافيا. وبعد ذلك وصل الجنرال جعفر النميري إلى الحكم بعد انقلاب عسكري، ولبرهة من الزمن، كان مسموحًا لبعض المقاطعات الأفريقية في الجنوب أن تحصل على مزيد من الاستقلالية. لعبت مصر دورها اللازم لإبقاء النميري في السلطة. وأبرمت مصر والسودان اتفاقية دفاع مشترك. وعند هذه اللحظة، انتهى النزاع المسلح بين شمال السودان وجنوبها، والذي كان قد نشب بصورة متقطعة. بدا أن السادات يجهز لوضع مصر أولاً وأن يخاطر بإيجاد

عداوات له في بعض العواصم العربية. وكانت الحرب الأخيرة مع إسرائيل قد أظهرت أن العالم العربي له بالفعل شيءٌ من الجوهر. وكان التعاون بين الدول العربية التي كانت أنظمتها في واقع الأمر غير عابئة بأن تتخذ الوحدة العربية أي صورة رسمية.

اليونان وتركيا وليبيا والجزائر: النظم العسكرية

في هذا العقد، كانت ثمة تطورات متوسطية كشف تشابهات بارزة بين شمال هذا البحر المتراكب وجنوبه: اليونان وتركيا، وليبيا والجزائر. ربما كان أبرز تلك التطورات هو الوجود الزائد لرجال عسكريين-بصورة مباشرة أو غير مباشرة- على رأس الأمور في بلدانهم. وحتى في إسرائيل، على الرغم من أن رابين لم يصل إلى الحكم عام 1974 إلا بعد انقلاب عسكري، فقد قضى معظم حياته وهو يخدم في قوات الدفاع الإسرائيلية. وفي إبريل عام 1967، استولت مجموعة من الضباط من ذوي الرتب المتوسطه على السلطة في أثينا، بعد أن ادعوا أنهم اكتشفوا مخططًا شيوعيًا لتدمير البلاد. وحينها، كان من المحتمل أن تعيد أي انتخابات تجرى في الشهر الذي أعقب الانقلاب حكومة أصولية، على الرغم من أن النمط الذي اتخذته الحياة الحزبية في اليونان لم يجعل أي شيء مؤكدًا. وكان شبح الحرب الأهلية، التي هُزم فيها الشيوعيون قبل ذلك بعشرين عامًا، لا يزال يخيم على المشهد السياسي لليونان. وعلى مضض أنعم الملك الشاب قسطنطين بإضفاء الشرعية على النظام الجديد، وبعد ذلك حاول محاولةً فاشلة للقيام بإنقلاب مضاد. وهرب من البلاد في ديسمبر. وتم إعداد دستور جديد في موعده أضعف سلطات البرلمان وأعلن بعد ذلك إنهاء الملكية. وتم عسكرة العمل الفعلي للحكومة بصورة مضطردة. وتم الحد من الحريات المدنية. كان الكولونيلات ينظرون لأنفسهم باعتبارهم راديكاليين مهمته تحقيق تجديد وطني، يتم تنفيذه بالرقابة النموذجية وإذا لزم الأمر بوحشية. وقد أعربت دول شمال أوروبا تحديدًا، من خلال المجلس الأوروبي، عن سخطها للهيمنة العسكرية على أوروبا. وشغلت الحكومات التي يتولاها كولونيلات، أو غيرهم ممن لهم رتب عسكرية أخرى، جانبي المتوسط. ولكن ربما كان اليونانيون يعتبرون شعبًا متوسطيًا في سياق أوروبي. ومع ذلك إستمر النظام. وقد ضمن له التزامه تجاه الناتو، بالإضافة إلى الأهمية

الإستراتيجية لليونان للتحالف شرقي المتوسط، غض الطرف عن مساوءه من جانب واشنطن. وبالفعل، افترض خصوم النظام أنه كان صنيعة الولايات المتحدة.

لم يكن التدخل العسكري أمرًا جديدًا في تركيا. كان الجيش قد "عاد إلى ثكناته" بعد التدخل عام 1960 ولكن الرموز القائده له كانوا لا يزالون ينظرون إلى أنفسهم باعتبارهم الأوصياء الشرعيين على الجمهورية. وكان الدستور الجديد قد تم تنفذيه، تحت عين حارسة، عام 1961. وشهد العقد التالي تصنيعًا متزايدًا، وتمددًا للتعليم، وزيادة في التمدن. نجحت الديمقراطية البرلمانية في البقاء، ولكنها لم تنجح في الازدهار. كان الانقسام بين اليمين واليسار أمرًا متوقعًا ولكنه كان يزداد تعقيدًا باستمرار بسبب الإشكالية الدائمة المتمثلة في هوية الجمهورية والإرث المقدس للكمالية. ولم يترك المفهوم المحدد للقومية التركية أي فرصةً لوجود هوية كردية في دولة تعددية. وظل تناقض موقف تركيا مرةً باعتبارها داخل أوروبا ومرة باعتبارها خارجها. وفيما يتعلق بحروب فلسطين، وجهت قطاعات من المسلمين الأتراك نقدًا صاخبًا لإسرائيل، والولايات المتحدة الأمريكية باعتبارها من يحمي إسرائيل. بيد أن تركيا ليست دولة عربية، وظل أمنها الداخلي بشدة داخل إطار عمل الناتو. ومرةً أخرى تعثرت ديمقراطيتها مع بداية سبعينيات القرن العشرين. انقسمت الأحزاب السياسية وأخفقت الحكومة. ووصف بعض المراقبين تركيا في عام 1971 بإعتبارها دولة الفوضى.

وفي مارس، تدخل الجيش مرةً أخرى، متهماً الحكومة التي كان يترأسها سليمان دميرل (المولود عام 1924) الذي أجبره الجيش على الاستقالة، بأنه يقود البلاد إلى حالة من الفوضى، والصراع بين الأشقاء والاضطرابات السياسية. وتطلع الجيش إلى إنهاء الوضع الفوضوي الراهن ولكن داخل سياق المبادئ الديمقراطية. ومع ذلك، وبعد تدخله، لم يرغب الجيش مباشرةً في إدارة البلاد. بيد أنه ثبت أن حكومة الإجماع والوحدة الوطنية التي كان الجيش يشرف عليها غير قادرة لا على إحداث إجماع ولا على إحداث وحدة وطنية. وكان الإرهاب والقمع يغذيان بعضها البعض. وسقطت البلاد تحت حكم عسكري وخلال الأعوام القليلة المقبلة تم تأكيد سلطة الدولة بقوة. واجتمعت الفصائل

السياسية وأعادت لملمة نفسها، وتبنت أسماء جديدة، ولكنها كانت لا تزال تلتف حول أفراد من ذوي الكاريزما بدلاً من الاصطفاف خلف برامج. واتحد حزبان، بقيادة بولنت أجاويد (المولود في 1925) ونجم الدين أربكان (المولود في 1926)، على الترتيب، لفترة من الزمن لتشكيل حكومة إئتلافية قوية. بيد أن صورة تركيا التي كانت يتطلع إليها كل واحد منهما كانت مختلفة جذريًا. في شبابه خطا أجاويد خطوة غير تقليدية تمثلت في تعلمه السنسكريتية والبنغالية. وكانت لغته الإنجليزية قد تحسنت بسبب دراسته في لندن. وكان أجاويد نفسه شاعرًا، وترجم أشعار الشاعر الإنجليزي تي إس إيلوت إلى التركية. وكان قد قضى شهورًا في الولايات المتحدة الأمريكية. كما أنه كان غربي الهوى، يحمل التزامات تجاه أوروبا والناتو. أما أربكان، الذي كان من نفس عمره تقريبًا، فكان يحمل درجة الدكتوراه في الهندسة من ألمانيا، بيد أنه كان ذو منظور شرقي وإسلامي بقوة. فكان يرى أن تركيا عليها أن تصطف بصورة أكثر قربًا مع إخوتها المسلمين في العالم العربي في الصراع ضد الصهيونية. وقد تسبب هذا التنوع، الذي صحبته مشكلات إقتصادية، أن السياسة التركية في بدايات سبعينيات القرن العشرين كانت متقلبة وتشوبها أحداث عنف في بعض الأحيان.

وكان ماضي اليونان وتركيا، بطبيعة الحال طويلاً. ولكن بات من المألوف ملاحظة أن العضوية المشتركة للبلدين في حلف الناتو من شأنها أن تكبح كلاً من العداوات الموروثة من الماضي أو النزاعات الحديثة فيما يخص ملكية بحر إيجة الشمالي. بيد أن هذا الإفتراض أسقط من الحسبان قبرص. فنادرًا ما كانت تتخلل العلاقات المشحونة بين الأغلبية التي تتحدث اليونانية والأقلية التي تتحدث التركية في الجزيرة لحظات من الصفا في السنوات التي تلت إستقلال الجزيرة عام 1960. وهو ما أدى إلى وصول قوات حفظ سلام تابعة للأمم المتحدة عام 1964. وقد نجا الأسقف ماكاريوس من عدة محاولات إغتيال. وفي يوليو 1974، أرسل إلى المنفى عقب إنقلاب قام به ضباط مولودون في اليونان من الحرس الوطني لقبرص. وأخيرًا تمكنت حكومة أثينا، التي كان ضالعة في الانقلاب من إيجاد فرصة لإرساء الوحدة الوطنية وافترضت أن أمريكا ستمنع أي تدخل تركي

وهو ما يعد خطئًا قاتلاً- أدى إلى انهيار النظام. ورفضت بريطانيا، التي كانت لا تزال تحتفظ بـ قاعدة سيادة في الجزيرة وكان من المفترض أن تكون الضامن لتسوية الاستقلال التدخل. وعلى ذلك، تصرفت أنقرة من جانب واحد، بأن أرسلت قوات في حملتين إحداهما في يوليو والأخرى في أغسطس. وإحتلت تلك القوات ما يقرب من 40٪ من الجزيرة في الشمال. ولم تكن تلك القوات عازمة على الرحيل. وأصبح أجاويد – الذي تحول من شاعر إلى رجل المواقف القاطعة- إلى بطل زمانه في تركيا- ومن ثمَّ تقدم بإستقالته. منع خصومه إجراء الانتخابات العامة التي كان من المزمع عقدها، والتي كان من المتوقع أن يفوز فيها بجدارة. وبدلاً من ذلك، وبعد الكثير من المساومة وتوزيع الأدوار، تشكل ائتلاف يميني من أربعة أحزاب تحت رقابة الجيش"الجبهة القومية". وفي عام 1975، كان المزيد من العنف يلوح في الأفق وكانت وجهة شراع تركيا غير واضحة.

وبعد سقوط الكولونيلات، عاد قسطنطين كرامنليس، رئيس الوزراء العسكري لليونان لفترات متتالية في العقد السابق، من منفاه في باريس إلى وطنه. ومع شركاء ائتلافيين، عزم على استعادة الديمقراطية (وليس الملكية، التي تم رفضها بموجب استفتاء). وتم تعزيز التوجه المستقبلي للبلاد. وفي بدايات ستينيات القرن العشرين، كان كرامنليس قادرًا على إبرام بروتوكول تمهيدي بالانضمام إلى المجتمع الأوروبي الاقتصادي. علقت بروكسل هذه الاتفاقية في عهد الكولونيلات. وكان كرامنليس يرغب في تفعيلها. وكان من شأن أوروبا أن تحدث توازن في التأثير الأمريكي القوي في الحياة اليونانية. وكانت أيضًا ثمة أسباب ديمقراطية قوية للسعي لتحقيق مصير أوروبي. وكانت نفس الأسباب متوفرة في تركيا. وكانت أعداد كبيرة من مواطني كلتا البلدين، وتحديدًا تركيا، تعمل في ألمانيا، وكانت تحويلاتهم النقدية عمودًا فقريًا اقتصاديًا مهمًا. بيد أن عناصر التشابه في الموقف لكلا الدولتين عند هذه النقطة لم تخلق أي جبهة مشتركة. وقد أزعجت العداوة التركية-اليونانية الشركاء العسكريين المشتركين بين البلدين. فما كان قد حدث وما زال يحدث في قبرص خلق عقبة جديدة أمام إرساء علاقةٍ من شأنها تسهيل إضفاء صفة الأوروبية على كلتا البلدين.

وعلى الجانب الآخر من المتوسط، هيمن العسكريون على زمام الأمور. فقد تأسس نظام جديد في ليبيا عام 1969 بالإطاحة بالملكية التي تمت دون إراقةٍ للدماء. وقد قاد هذا النظام العقيد معمَّر القذافي الذي كان يبلغ من العمر حينها 27 عامًا؛ الذي كان قد ترك دراسة التاريخ في جامعة ليبيا ليلتحق بالجيش. ومثلت حركة الضباط الأحرار التي أسسها القذافي صدى لتلك التي أسسها ناصر قبل عقدين من ذلك في مصر. وتحولت مملكة ليبيا إلى جمهورية ليبيا العربية. كان تغيير العنوان مهمًا، ولكنه لم يتمكن وحده من حل المشكلة الجوهرية للـ هوية. لم يكن لـ ليبيا كبلد أي أهمية تذكر. كما أن الملكية التي كانت قد تمت الإطاحة بها لا تزال حديثة العهد. كما كان من الصعب أن يتم التوافق مع القذافي، الذي كان من خلفية بدوية، وبدا وكأنه يحب عيش الخيام، في بعض الأحيان على الأقل. وقد بدا أن قليلاً من السلطة يمكنه أن يلم شعث هذا البلد المنفسح بلا نظام. وكان من شأن الإسلام – بصورته التي أقرها القذافي– أن يوحد مجتمع فسيحًا على انقساماته القبلية. ولم تغير إقامته في إنجلترا عام 1966 لتعلم الإنجليزية ودراسة إجراء الإشارات من أجندته القومية العربية الإسلامية أو عداءه للإمبريالية الغربية (وإسرائيل). وكان البترول قد اكتشف في ليبيا عام 1959. وقد منح هذا الاكتشاف البلاد مستقبلاً جديدًا وهي التي لم يكن لها إلا مساحة ضئيلة من الأرض تصلح للزراعة، البلاد التي كانت قادرة على الالتفاف إلى جارتها الشرقية التي كانت تفوقها من حيث عدد السكان، مصر (والتي كان سكانها يقصدون ليبيا للعمل). وكان من بين أعمال القذافي الأولى هو تأميم صناعة البترول. وقد أُلغيت رسميًا اتفاقية الصداقة الإنجليزية–الليبية، التي جرى توقيعها عند استقلال ليبيا عام 1953، في يناير عام 1972. وعند هذه النقطة تحول الرجل إلى ابتداع مخططات لتنظيم سياسي واجتماعي واقتصادي زُعم أن لها دلالة عالمية. كان هذا التنظيم هو "الاشتراكية الإسلامية" على الطراز الطرابلسي. رُسمت لشخصية القذافي عالميًا صورة شخص غريب الأطوار؛ ربما كان السبب وراء هذه الصورة هو أنه كان غريب الأطوار فعلاً.

وإذا ما أوغلنا في اتجاه الغرب، كانت لدى الجزائر أيضًا إحتياطيات نفط وغاز

طبيعي كبيرة. وبحلول بدايات سبعينيات القرن العشرين، استحوذت الحكومة الجزائرية بدرجة كبيرة على أغلبية شركات النفط والغاز. وقبل ذلك، كانت حرب فرنسية-جزائرية قد نشبت. انفتحت الحكومة الجزائرية على العالم، دون إيلاء عناية خاصة للأيديولوجية، لكي تكتسب المعرفة العملية التي كانت في حاجة إليها لتطوير مواردها. وفي إبريل من عام 1975، مع ذلك، ولرأب الصدع بين البلدين، قام الرئيس الفرنسي جيسكار بزيارة إلى الجزائر. وتم التوصل إلى درجة من الاستقرار في العلاقات الفرنسية-الجزائرية. بيد أن شيئًا من الازدواجية المتبقية كان واضحًا. وحضر ما يقرب من 7000 مدرس فرنسي إلى الجزائر بموجب شروط التعاون الثقافي لاتفاقية إيفيان التي كانت قد أنهت الحرب. ولكن هل كان هذا التعاون أمرًا هدئ من روع فرنسا فيما يخص الحفاظ على سلامة عالم فرنكوفوني أكثر من كونه أمرًا ساعد الجزائر على تشكيل هويتها الجديد التي كانت محل إشكال؟ ولكن، بالنظر إلى تكوين الجزائر، لا يزال بوسع المراقب أن يرى في بعض مبانيها دليلاً بيِّنًا على أن حضارة فرنسية مرت من هنا؛ وذلك على الرغم من إستبدال تماثيل رواد حركات التحرير الجزائرية بتماثيل الغزاة الفرنسيين، كما تم تبديل أسماء العديد من الشوارع، وتحويل الكتدرائية الكاثوليكية إلى مسجد. وظلت كنسية السيدة الإفريقية المذهلة قابعة في غياهب الإهمال. وكان عدد سكان المدينة قد تضاعف تقريبًا على مدار العقد السابق وتجاوز المليون، جاء نصفهم تقريبًا من خلفية تتحدث العربية ونصفهم من خلفية قبلية/ بربرية. بيد أن اللغة الفرنسية ظلت حاضرة بشدة.

رسائل النفط: الجزائر العاصمة، 1973

وإستنادًا إلى موارد الهيدروكربون التي تتمتع بها البلاد، تطلع بوميدين إلى أن يجعل من الجزائر الوجهة الصناعية لبلدان المغرب وفي عملية إدارته الدولة، خطى خطوات واسعة، حتى وإن كانت بخطى غير مضطردة. أما رؤيته الأوسع، فتمثلت في أن تضطلع الجزائر بدور محورى في إعادة إحياء حركة عدم الانحياز. وفي الجزائر العاصمة عام 1973 حضر مؤتمر عدم الانحياز دول أكثر (75) من أي وقت مضى، بما في ذلك، من بين دول أخرى تحضر لأول مرة، دول لا ينكر أحد تواضع مكانتها، مثل بوتمان وعمان ومالطا

وموريشوس. كما حضرت أيضًا بنغلاديش، الدولة التي لا يزيد عمرها على عامين، التي حققت الاستقلال بعد حرب دامية دمرت الإقليم الذي كان تابعًا لباكستان عام 1947. ولطالما أثارت إمكانية وصف تلك الحرب بأنها حرب أهلية تساؤلات مثيرة للخلاف. وبعيدًا عن تلك الأمور، عمل المؤتمر– على حد قول بوميدين– على إظهار قدر من القوة الجماعية تجعلهم "أي الدول الغنية" يفهمون "أننا" نعني الأعمال.

كما كانت مدينة الجزائر العاصمة أيضًا في نوفمبر محل اجتماع الرؤساء العرب بعد حرب 1973. وساد شعورٌ حقيقي بالثقل الجماعي للعالم العربي. وقد اكتسب هذا الأمر وزنًا من إستخدام "سلاح النفط" في أكتوبر– نوفمبر 1973. فقد رفعت بعض الدول العربية أسعار النفط بصورة كبيرة. فقد فرضت السعودية بعد أن تم رفض طلبات إيقاف توصيل السلاح إلى إسرائيل حظرًا على توريد النفط إلى أمريكا. وعلى نفس المنوال سارت ليبيا والجزائر ومعظم دول الخليج. كما تم أيضًا تنفيذ خفض لإنتاج النفط. وتم تصنيف الدول التي تتلقى النفط باعتبارها صديقة أو معادية أو محايدة وتم الإبقاء على إمداداتها أو تقليلها وفقًا لهذا التصنيف. وكان أثر ذلك على هولندا – على سبيل المثال– بعد وضعها في الصنف الأول عميقًا– على الرغم من أن بلجيكا، التي وضعت في الصنف الثاني، تمكنت من مساعدة جارتها في الخروج من تبعات هذا الأمر. في حين قامت اليابان ببعض الضجيج الدبلوماسي مما مكن من إدراجها في صورة دولة صديقة بدلاً من دولة معادية. وبمرور ثلاثة أشهر، بحلول نهاية ديسمبر من عام 1973، كان سعر النفط قد تضاعف إلى أربعة أضعاف. ومع ذلك، لم يكن سلاح النفط قاطعًا في الحرب. فقد استلزم الأمر وقتًا لكي توحد الدول العربية المنتجة للنفط جهودها، ولم تشترك جميعها في هذا الجهد. فقد كان الشغل الشاغل لبعض الدول أكثر من غيرها هو خسارتها لعوائد تطبيق المقاطعة. ومع ذلك وفي حين نقر بأن إنشاء جبهة موحدة والحفاظ عليها شديد الصعوبة، كان الأمر ذا أهمية بكل تأكيد. وحينها تم خلق منظمة للدول العربية المصدرة للنفط، ومقرها فيينا، عام 1968 بواسطة أعضاء عرب لمنظمة الدول المصدرة للبترول (أوبك) التي تشكلت في بغداد قبل هذا بثمانية أعوام. وبحلول عام 1973، تشكل هذا العالم من النفط من اثنى

عشر عضوًا، كان أربعة منهم فقط (فنزويلا، ونيجريا، والإكوادور، وإندونيسيا) من خارج الشرق الأوسط.

وبعد انتهاء أزمة الحرب التي جلبت الزيادة في أسعار النفط، لم تهبط الأسعار فجأة مرةً أخرى، وبدأت الدول العربية وغيرها من الدول المنتجة للنفط في أن تشهد زيادة في عوائد النفط لديها. وبدت صدمة النفط أن لها تداعيات على المنتجين والمستهلكين على حد سواء. وقد عمت الفوضى الاقتصادية كافة أنحاء البسيطة.

في ختام مؤتمرهم أعلن القادة العرب أن الأمة العربية ستقوم بواجبها وستكون على استعداد للمزيد من النضال والتضحية لتحقيق العدالة في فلسطين. ألقي النزاع بين الجزائر وجارتها المغرب بعد ذلك بوقت قصير، بشأن مستقبل الصحراء الغربية، ضوء أخر على الأمة العربية. وكذلك فعل الوضع في لبنان عام 1973. ولأكثر من أربعين عاماً لها كدولة مستقلة، كانت ضوابطها وتوازناتها الدستورية لفهم المزيج المعقد للمسحيين المختلفين والأشكال المختلفة من الإسلام دوماً متزعزعة. لم تكن بيروت على الرغم من تطورها مدينة مجتمعية. أدي وصول شريحة جديدة من الفلسطينيين، الذين طردوا من الأردن، إلى تزعزع توازنها الداخلي. تذمر النقاد من أن الفلسطينيين، المحتشدين في المخيمات، يشكلون لأنفسهم دولة داخل الدولة. جلبت الهجمات الفلسطينية على إسرائيل الإنتقام الإسرائيلي إلى لبنان. هاجمت ميليشيا مسيحية يمينة، مخيمات الفلسطينيين في أبريل 1975 وألحقت بهم خسائر فادحة. تلقي الفلسطينيين بدورهم دعماً من الجماعات الإسلامية اليسارية. بدا الأمر كما لو أن الحرب الأهلية قد بدأت. وضعت هذه الصراعات، سواء الحالية أو الناشئة، الأمة العربية في موقف مختلف.

شاه إيران: تتويج الإنجاز؟

نقل النفط إيران إلى العالم السياسي البحر متوسطي/ العربي الذي تمت مناقشته في الأجزاء السابقة ولكن بشكل هامشي. تسببت قوة إيران في التخوف من الخليج لأسباب واضحة. كان لشاه إيران دوراً في دفع ارتفاع أسعار النفط ولكن كانت له أسبابه الخاصة. كان طموحه ينمو. في عام 1971 كان قد حكم لمدة ثلاثين عاماً (ولقد تولي عناء تتويج

نفسه في 1976 بشكل رسمي) وقام بالترتيبات المناسبة للاحتفال بهذه الحقيقة. ولحسن حظه تزامنت الذكري السنوية له مع الذكري الـ 2500 للإمبراطورية الفارسية. أقيم إحتفال باهظ في مدينة أنشئت خصيصاً بين أنقاض صحراء برسيبوليس. أصبح الطاووس، الرمز الوطني، في كل مكان وعلى العملات المسكوكة خصيصاً في فرنسا وعلى أطباق العشاء المقدمة لضيوفه. كان الشاه مسروراً بتقديم نفسه خليفة، أن لم يكن السليل، لكوروش الكبير. تألق هيل سيلاسي، وهو لاعباً أساسياً في التجمعات الاحتفالية العالمية، بشكل إمبراطوري على الستين رئيساً الآخرين للدولة الحالية. أقيم هذا الأمر خصيصاً لإثبات قدم وحداثة إيران. في أحد الأيام ركع الشاه أمام ضريح كوروش وفي اليوم التالي كان يحيي ضيوفه في مطار شيراز. أظهرت الحداثة نفسها في برنامج إصلاح الأراضي وإصلاح التعليم، وأحدها كان في مواجهة المعارضة الدينية. أصبح ارتداء الحجاب للسيدات غير قانوني. أثار إعجاب الشاه بمحلات السوبر ماركت، على الرغم من أنه ليس زبوناً غضب التجار التقليديين. كان لديه وسائل لفرض رأيه بشأن الحداثة. كان التصالح والاندماج غريبين على طريقته في التصرف. وفى مدينة "قم" وفي 1964 في منفاه في العراق، نشأ روح الله الخميني، إتباعاً لتقليد عائلي مثل آية الله، نتيجة عمل شاق يدمج بين الفلسفة الإسلامية والقانون والأخلاق، جميعها من وجهة نظر الشيعة. استنكر الأساطير الملكية لبيرسيبوليس ولمحاولات الأخرى للحد من الإسلام (مثل فرض تقويم جديد يبدأ من كوروش الكبير بدلاً من هجرة محمد). وبطبيعة الحال فقد أدان ما اعتبره تبعية الشاه للولايات المتحدة الأمريكية.

كانت العلاقة بين إيران والولايات المتحدة علاقة وثيقة. كانت الأخيرة مسرورة في أوائل السبعينات برؤية إيران بوصفها الوصي علي الخليج الفارسي. ومع ذلك لم ير الشاه نفسه مجرد مساعد محلي للولايات المتحدة. ظن العراق، وحكام الدول الجديدة على شاطئ الجنوبي، المحرومين منذ 1971 من الوجود البريطاني، أن الخليج عربي. كانوا أقل تقديراً للوصاية الإيرانية كما كان الملك فيصل في الرياض (تم عزل الملك سعود أخيراً في 1964). صدرت تصريحات من إيران معلنة أنها في طريقها لتصبح أحد القوي الخمس العظمي في

العالم. ظل مصنعي الصهاريج في الولايات المتحدة وبريطانيا مشغولون عن متطلبات الشاه. ساعدت زياراته إلى ألمانيا والهند والولايات المتحدة، ترافقه زوجته التي لم تكن محجبة بالطبع، في تقديمه كشخصية عالمية هامة. محلياً، لم يكن هناك إجماع حول انتماء إيران في العالم. سيكون للعجرفة أعدائها. لم يكن التطور في العلاقة بين إيران والعالم العربي وبين الشيعة والسنة بعيداً.